الحركة الطلاّبية في الأدب المصري

مصطفى بيّومي

لعب طلاّبُ المدارس الثانوية والجامعات دورًا بالغَ الأهمية في تشكيل التاريخ المصري الحديث والمعاصر. وإذا كان الأزهرُ بأساتذته وطلاّبه قد تصدّى لقيادة العمل الوطني في القرون السابقة، فإنّ الكفّة قد مالت إلى طلاّب التعليم المدني في القرن العشرين.

ثمة محطّاتٌ رئيسةٌ في تاريخ الحركة الطلاّبية المصرية، لعلّ أوّلَها وأهمَّها يتجسّد في مشاركة الطلاّب الفعّالة في أحداث ثورة ١٩١٩، ثم مقاومتهم لطغيان أحزاب الأقلية غير الشعبية، وصولاً إلى انتفاضة سنة ١٩٣٥ ـ وفيها قاد طلابُ مصر حركةً شعبيةً عارمةً أدّت إلى قيام الائتلاف الوطني وتوقيع معاهدة سنة ١٩٣٦.

تغيّرت الأفكارُ والتوجُّهاتُ بنشوب الحرب العالمية الثانية وبعد نهايتها كانت «اللجنةُ الوطنيةُ للطلبة والعمّال» بمثابة البداية لتحوّلٍ شاملٍ في منهج قيادة الحركة الوطنية ذاتِ الأبعاد والأهداف الاجتماعية، التي لا تَقْنع بمطلبَي الدستور والجلاء. وما الاحتفالُ الدولي بيوم الطلبة العالمي، في الحادي والعشرين من فبراير من كلّ عام، إلاّ تتويجٌ لنضال الطلبة المصريين، الذي استمرّ متوهِّجًا حتى قيام ثورة يوليو ١٩٥٢، ثم خبا وتراجَعَ في ظلّ الحكم الشمولي، وبُعِثَ من جديد في أعقاب هزيمة ١٩٦٧ التي كَشَفتْ عن الثمن الفادح لغياب الديموقراطية واستبعاد حيوية الشباب وأفكارهم الأكثر صدقًا وتعبيرًا عن الواقع.

كانت مظاهراتُ الطلبة والعمّال احتجاجًا على مأساة الهزيمة. وعَبْرَ ما يزيد عن عشر سنوات أَحْدَثَ الطلابُ اليساريون حراكًا سياسيّاً لا يُمْكن إنكارُه، وفَرَضوا على الشارع المصري شعاراتٍ ورؤًى مغايرةً للسائد والمألوف. ثم تحوّلت الدفّةُ مع نهاية السبعينيات، وسيطر الاتجاهُ الإسلامي الذي يتّسم بنزعةٍ مختلفةٍ في التفاعل مع الأحداث والقضايا الوطنية.

لم يقصّر الأدبُ المصريُّ، الروائيُّ والقصصيُّ، في صياغةِ شهادةٍ فنيةٍ عن الإنجاز الوطني للحركة الطلاّبية عبر مختلف مراحلها. واللافت للنظر أنّ الشعر العامي، دون الفصيح، كان الأكثرَ تعبيرًا عن قضايا الطلاّب واجتهاداتهم، وهو ما نجده عند بيرم التونسي وفؤاد حدّاد وصلاح جاهين وأحمد فؤاد نجم وزين العابدين فؤاد ومحمد سيف وغيرهم. والاستثناء الوحيد الفصيح يمثّله الشاعرُ الكبير أمل دنقل، وبخاصةٍ في قصيدته الذّائعة الصيت: «أغنيةُ الكعكة الحجرية »

ثورة ١٩١٩

ليس مثل نجيب محفوظ في تعبيره عن أهمية الدور الذي قام به طلابُ الجامعة المصرية إبّان ثورة ١٩١٩، تمهيدًا لها ومشاركةً في أحداثها وحفاظًا على مبادئها وقيمها

فبعد ثلاثة أيام من نهاية الحرب العالمية الأولى وإعلان الهدنة، يروي فهمي أحمد عبد الجواد، في رواية **بين القصرين** لمحفوظ، أنّه قد «ذاع بين الطلبة نبأٌ عجيبٌ كان حديثَنا اليومَ كلَّه، وهو أنّ وفدًا مصريّاً، مكوّنًا من سعد زغلول باشا وعبد العزيز فهمي بك وعلي شعراوي باشا، توجَّهَ أمس إلى دار الحماية وقابَلَ نائبَ الملك للمطالبة برفع الحماية وإعلان الاستقلال » (ص ٣٠٥)

كان نفيُ سعد زغلول ورفاقِه إيذانًا باشتعال الغضب، الذي وَصَلَ إلى ذروته بين صفوف الطلاّب؛ ذلك أنّهم راهنوا على زعامة سعد لتحقيق تطلّعاتهم الوطنية وكان المنشغلون بالهمّ السياسي منهم ينتمون إلى مبادئ الحزب الوطني، ويدينون بالولاء العاطفي لمصطفى كامل ومحمد فريد. لكنّ زعامة سعد الوليدة راحت تزيح ما قبلها· وفي هذا يقدِّم نجيب محفوظ مشهدًا بالغَ العمق والصدق في رصده للمناخ الجديد وما يُنْبئ به من متغيِّرات ففي الطريق إلى الجامعة، راكبًا ترامَ الجيزة، يجد فهمي نفسَه بين شرذمة من الطلاب

«يتناقشون ملوِّحين بقبضاتهم؛ [فقد] نُفي سعد وهو يعبِّر عن قلوبنا. فإمّا أن يعودَ سعد ليواصل جهادَه، وإمّا أن نُنفى معه. ولما أقبلوا على فناء المدرسة وجدوه مكتظّاً صاخبًا مرعِدًا،

فسبقتهم قلوبُهم إليه. ثم هرولوا إلى زملائهم تحدِّثهم نفوسُهم بحدثٍ وشيك. وما لبث أن انبرى أحدُهم مناديًا بالإضراب وجاءهم ناظرُهم المستر ملتون في لطفٍ غير معهود، ونَصَحهم بالدخول إلى الفصول فكان الجواب أنْ صَعَدَ شابٌّ منهم إلى أعلى السلم المُفْضي إلى حجرة السكرتير، وراح يَخْطب بحماسة فائقة. فلم يَسَع الناظرَ إلا الانسحاب. ثم ما يَدْرون إلاّ والمستر ايموس، نائبُ المستشار القضائي البريطاني لوزارة الحقانية، يشقّ طريقَه بين جموعهم. فقابلوه بهتافٍ واحد: 'لتسقط الحماية. لتسقط الحماية!' فتلقّاهم الرجلُ ببرود لم يَخْرق به حدَّ اللطف، ونصحهم بالعودة إلى مدارسهم، داعيًا إيّاهم إلى تَرْك السياسة لآبائهم هنا تصدى له أحدُهم قائلاً: إنّ آباءنا قد سُجِنوا، ولن نَدْرس القانونَ في بلدٍ يُداس فيه القانون.» (ص ٣٤٠)

الفقرة السابقة من الرواية تبدو بالغةَ الدقة، عند مقارنتها بما تَذْكره كتبُ التاريخ في تجسيد المناخ الثوري الذي ساد في الأوساط الطلابية. وتزدحم الروايةُ بكثير من التفاصيل عن اللجان والخلايا الطلابية التي تشكّلتْ لممارسة مهامّ وطنية بارزة: توزيع المنشورات، وتنظيم الإضرابات، وحشد المظاهرات . لقد طغى الشعورُ الوطنيُّ حتى تغلَّبَ على الالتزام الأُسَري التقليدي، ولم يستطع فهمي أن يَخْضع لأوامر أبيه بالابتعاد عن العمل السياسي، ومثلُ هذا المؤشِّر لا يُمْكن استيعابُ أبعاده بمعزل عن إدراك السلطة الأبوية غير المحدودة للسيّد أحمد عبد الجواد. لقد انتصر الانتماءُ الوطني، وانحاز الشبابُ لنداء الوطن متخلِّين عن الرواسب الموروثة للطاعة الأبوية. وليس مصادفةً أن تنتهي الروايةُ، وكأنّها تشير إلى نهاية مرحلة كاملة، باستشهاد فهمي بعد انتصار الثورة وصدور قرار الإفراج عن سعد زغلول. لقد دفع الطلاّبُ المصريون، وغيرُهم من فئات الشعب، ثمنًا غاليًا للنصر لكنّ المسار التي اتّخذته الثورةُ المنتصرة كان مليئًا بالمنغِّصات: فقد هيمن الانقلابيون على مقدِّرات الحياة السياسية، وتعرّض الحزبُ الشعبي الذي قاد الثورةَ للمؤامرات والدسائس، واستمرّ الطلابُ في مسيرتهم الثورية لمقاومة الجلاّدين والطغاة.

طغيان إسماعيل صدقي

تنشغل روايةُ **الأرض**، للكاتب الكبير عبد الرحمن الشرقاوي، برصد حالة السخط التي عَمّت الريفَ المصري، مطلعَ الثلاثينيات من القرن العشرين، في مواجهةِ ديكتاتوريةِ إسماعيل صدقي. لكنّ الاهتمام بثورة الفلاّحين لا يَحُول دون التفات الروائي إلى ما يقوم به **الطلاّبُ** في القاهرة، من خلال عينَي الراوي، وفي عاصمة المديرية، عندما يُعتقل الفلاحون ويشاهِدون في محبسهم ما يَفْعله الطلاب، ثم يعودون إلى القرية ليقصّوا أفعالَهم الجديرةَ بالإعجاب:

«في كلّ ساعة من الليل كانت حُجراتُ سجن المركز تستقبل آخرين. كانوا خليطًا من طلاّب المدارس الثانوية، ومدرسة المعلّمين الأولية، ومدرسة الزراعة المتوسطة في عاصمة الاقليم. وكان من بينهم بعضُ الطلبة الذين يدرسون في الجامعة بالقاهرة، والذين صنعوا هناك المظاهرات طوال الشتاء.» (**الأرض**، ص ٢٦٧)

الطلاب الوطنيون يقاومون طغيانَ صدقي في القاهرة وفي المدن الصغيرة، ولا يَمْلك الفلاحُ الفصيحُ عبد الهادي إلا الذهولَ مما يسمع: «وعَجِبَ للّهجة الصافية التي يتحدّث بها هؤلاء المحبوسون. وعَجِبَ ـ أكثرَ من أيّ شيء ـ لإيمانهم الخارق بأنّهم سيطردون حزبَ الشعب، والذين وراءَ حزبِ الشعب » (ص ٢٦٨)

لكنّ نجيب محفوظ يبقى هو الأعمقَ والأشملَ في رصده وتحليله لطبيعة العلاقة الصِدامية بين الطلبة وحكومة صدقي. وتضمّ قائمةُ الضحايا في عالم نجيب محفوظ كثيرًا من الشهداء الذين سقطوا برصاص السياسي الطاغية المكروه شعبيّاً

ففي رواية **المرايا**، يتزوّج خليل زكي من ابنةِ قصّابٍ غنيّ من مدمني المخدِّرات: «وكانت الوحيدة التي بقيتْ من ذريّة الرجل،

لم يقصّر الأدبُ المصري في صياغة شهادة فنية عن الإنجاز الوطني للحركة الطلاّبية عبر مختلف مراحلها، بدءاً بثورة ١٩١٩.

بعد أن قُتل أخواها في المظاهرات التي اجتاحت البلادَ في أول عهد إسماعيل صدقي» (**المرايا**، ص ٩٦). ويتعرّض الطالب رضا حمادة، أحدُ أقرب أصدقاء الراوي في الرواية نفسها، للقتل في عهد صدقي (ص ١١٠). ويموت صديقٌ آخر، طه عنان، في مظاهرةٍ ضدّ إسماعيل صدقي «السفّاح المتعطّش للدماء.» (ص ٢٢٨)

وفي **حديث الصباح والمساء** لمحفوظ أيضًا، يُقتل الطالبُ الوطني أمير سرور عزيز في أوائل عهد إسماعيل صدقي. «ففي طوفان المظاهرات التي قامت احتجاجًا على إلغاء دستور ١٩٢٣، أَرْدَتْهُ رصاصةٌ قتيلاً في شارع محمد علي. وقد تولّى رجالُ الأمن دفنَه مع كثيرين حتى لا تهيِّئ جنازاتُهم فرصةً لقيام مظاهرات جديدة. ولم يُسمحْ بشهود دفنه إلا لأبيه وعمه وإخوته.» (**حديث الصباح والمساء**، ص ٢٨)

وفي قصة «أُسرةٌ أناخ عليها الدَّهرُ» من مجموعة **الشيطانُ يَعِظُ**، يتوجّه الراوي إلى دراسة الظروف الاجتماعية والاقتصادية لأُسْرة تطلب مساعدةَ وزارة الأوقاف. وعندما يسأل عن الأولاد يتلقّى إجابةً صادمة: «الابن الأكبر، وهو في نهاية مرحلته العليا، قُتل في مظاهرة على عهد إسماعيل صدقي.» (**الشيطان يَعِظُ**، ص ٢٧٤)

أما علي سليمان، أحدُ الوجوه التي تَجْمعها الصورةُ التذكاريةُ في قصة «صورة قديمة» من مجموعة **دنيا الله**، فقد أصيب برصاصةٍ في صدره على عهد صدقي (**دنيا الله**، ص ٢١٤) ويُقتل يسري صابر مكي في قصة «صباح الورد،» عندما يتعرّض ـ وهو طالب في كليّة الطب ـ لهجمةٍ شرسةٍ من الشرطة ضمن مظاهرة كبيرة ضدّ إسماعيل صدقي: «ونُقل إلى مستشفى قصر العيني مصابًا برصاصة في بطنه، وسرعان ما أسلم الروح.»

والحال أنّ إسماعيل صدقي ليس متفرّدًا في عدائه للشعب والحركة الطلابية الوطنية، بل هو حلقةٌ من سلسلةٍ مشؤومة من الطغاة كما يقول كمال عبد الجواد في **السكّرية** (ص ٤٥). «اليوم توفيق نسيم، وأمس إسماعيل صدقي، وأول أمس محمد محمود. تلك السلسلة المشؤومة من الطغاة التي تمتدّ إلى ما قبل التاريخ. كلّ ابن كلب غَـرَّتْه قوتُه يَزْعم لنا أنّه الوصيُّ المختار، وأنّ الشعب قاصر!»

هذه السلسلة، التي تنهال عليها الشتائمُ القاسيةُ، جاهزة دائمًا للانقلاب على الشعب، والتحالُف مع أعدائه، وتقديمِ الخدمات المطلوبة للسراي أو الإنجليز. ولذا كان على الطلاب أن يتصدّوا لها، وجاءت قمةُ نجاح النضال الطلابي في إسقاط مسلسل الفساد السياسي الذي ألغى الدستورَ وحَكَمَ بالحديدِ والنار.

انتفاضة ١٩٣٥

في **بداية ونهاية** لمحفوظ، يشارك حسنين كامل، طالبُ المرحلة الثانوية، في المظاهرات التي اندلعتْ بعد تصريحات الوزير الإنجليزي هور حول دستور ١٩٢٣، ويَهْتف مع الهاتفين: «ليسقط تصريح هور،» و«ليسقط هور ابن الثور.» (**بداية ونهاية**، ص ٣)

طلاّب المدارس الثانوية يشاركون في العمل السياسي، إذن. ومثلُ هذه المشاركة الإيجابية تتوافق مع المناخ العامّ؛ فقد كان الوفدُ حزبًا شعبيّاً يحتضن الشبابَ الوطني، وكان يغيِّر سياسته ـ كما يقول الماركسي كامل رمزي ـ إذعانًا لمشيئة التلاميذ بالمدارس الثانوية! (**المرايا**، ص ٣٤٧)

في رواية **الشوارع الخلفية** لعبد الرحمن الشرقاوي ما يَكْشف عن النضج السياسي والفكري لطلاّب المرحلة الثانوية في الثلاثينيات: فقد شاركوا في إسقاط حكومة توفيق نسيم، وتزعّموا مع زملائهم طلاّب الجامعات الدعوةَ إلى الائتلاف الوطني. وتضفي الروايةُ هالةً من القداسة على الشهيد عبد الحكم الجراحي؛ وليس أدلّ على ذلك من الانفعال الطاغي لدرّيّة، ابنةِ الضابط شكري عبد العال، وهي تقرأ رسالةَ الشهيد التي تفجِّر الدموعَ:

الحركة الطلاّبية في الأدب المصري

«خطاب مفتوح إلى رئيس وزراء إنجلترا، روح الشر: أَطلقَ عليَّ واحدٌ من بني جلدتك النارَ، وها أنذا أزحفُ نحو الموت. ولكنّي سعيدٌ جدّاً لأن أبذلَ روحي وأضحّي بدمي في سبيل مصر. الموت شيء تافه، وآلامُ الموت عذبةٌ من أجل مصرنا.. تحيا مصر.. مصرُ فوق الجميع. تحيا التضحية.. يسقط الاستعمار. تَسْقط إنجلترا... سيعاقبكم اللهُ.. تحيا التضحية!»

واختنق صوتُ دريّة وهي تقرأ، وارتفع عويلُ أختها سميرة. ولا يَمْلك قارئُ رواية الشرقاوي إلاّ أن يتوقّف أمام التجسيد الفني الأخّاذ للدور الإيجابي الذي قام به طلاّبُ مصر في المرحلتيْن الثانوية والجامعية والحقّ أنّ الجراحي لم يكن هو الشهيد الوحيد ـ فقد سقط الابنُ الذكرُ للضابط الوطني شكري عبد العال شهيدًا، كما سقط الطالب سعد داود في مواجهة مع الشرطة. وهذا ما يضفي على الرواية إطارًا شجنيّاً، تختلط فيه مشاعرُ الألم والحسرة مع أحاسيس التضحية والعطاء النبيل.

تحالف الطلبة والعمّال

في الصفحة الأولى من رواية **الباب المفتوح**، للدكتورة لطيفة الزيّات، عن أمسية ٢١ فبراير سنة ١٩٤٦ مرحلةٌ جديدةٌ في الكفاح الوطني، وتوجُّهٌ مختلفٌ للطلاب، ومشاركةٌ نسائيةٌ غيرُ معهودة. الأعلام المرفوعة مخضّبةٌ بالدماء: «أعلام من دم، دم اللي ماتوا وانجرحوا عشان مصر، ٢٣ ماتوا و١٢٢ انجرحوا.» (**الباب المفتوح**، ص ٢)

كانت لطيفة الزيّات واحدةً من قيادات الحركة الطلابية، وكذلك الأمر مع يوسف إدريس، الذي عَبَّرَ عن المرحلة نفسها في قصته القصيرة الطويلة «قصة حب،» من مجموعة **جمهورية فرحات**. فقد تحوّلَ حمزة من طالبٍ مستهترٍ إلى مناضل وطني شرس، بفضل المناخ الذي خلقتْه الحركةُ الطلابيةُ الواعية ففي السادس من مارس سنة ١٩٤٦ حصل الحدادُ الشعبي العامّ على ضحايا كوبري عباس في ٢١ فبراير، وكان السلوكُ الوطني كفيلاً بتغيير مسار حمزة من العبث واللهو إلى الوعي الذي جعل منه زعيمًا طلابيّاً مرموقًا. وفي حين كان الأستاذُ الجامعيُّ الوقور يرى أنّ العلم هو القوة، تملّك حمزة:

«ضيقٌ شديدٌ وحماسٌ. فرحت طالِع وماسِك الطباشيرة وأضفت الكلمة دي: العلم (في بلد مستقل) = قوة. وهاج المدرّج وماج وكان سيَعْقب المؤتمرَ انتخابُ مندوبين عن الكلية في اللجنة التنفيذية للجامعة كلها وانتخبتُ. وكان دَهْ أول الطريق.» (**جمهورية فرحات**، ص ١٠٣)

لطيفة الزيّات، طالبةُ الآداب، ويوسف إدريس، طالبُ الطبّ، هما من القيادات الطلابية المعاصرة لأحداث ١٩٤٦ وبهاء طاهر، الذي لم يكن قد تجاوز العاشرةَ من عمره إلا قليلاً، يعبِّر عن المرحلة نفسِها في قصة «نهاية الحفل» من مجموعة **الخطوبة**. واحد من الثوريّين القدامى يباهي بتاريخه الوطني، ويدلّل على ذلك بمشاركته في المظاهرة الطلابية التي انتهت بالمأساة الدامية: «أنا في سنة ٤٦ كنت على كوبري عباس. أين كنت أنت؟ وأنت؟» (**الخطوبة**، ص ٦٢). وفي قصة «شتاء الخوف،» من مجموعة **ذهبتُ إلى شلال**، يستدعي صلاح عمران الحدثَ الداميَ كلما شاهد كوبري عباس:

«ما من مرة يراه أو يمشي فوقه إلاّ وتطارده الفكرةُ التي كثيرًا ما عذَّبتْه. الطلاّب فوق الكوبري يهتفون للوطن، ولكنّ جسمَ الكوبري الحديدي يتحرّك ببطء ليَفْتح بئرًا عميقةً نحو الأمواج تتساقط فيها الأجسامُ لم يرَ ذلك. كان وقتَها طفلاً، ولكنّه كثيرًا ما سمعه وقرأه.» (**ذهبتُ إلى شلال**، ص ٦٩)

إنّ الكراهية بطبيعة الحال ليست موجّهةً إلى الكوبري ـ المبنى، أو الكوبري ـ الاسم، بل إلى الحادث الدموي العنيف الذي يجسِّد أسلوبًا قمعيّاً في مواجهة الحركة الطلابية. ومن أَجْدر بالمثقف المذعور الخائف من الاعتقال، قرب نهاية الخمسينيات، أن يجد في الكوبري وما يقترن به من أحداث تاريخية تأكيدًا لمخاوفه؟!

ليس مثل نجيب محفوظ في تعبيره عن أهمية دور الطلاب إبّان ثورة ١٩، وتصدّيهم لصدقي، ويقظة وعيهم بعد هزيمة ٦٧

تأميم الحركة الطلابية

إذا كان الجزء الأول من ثلاثيّة جميل عطية إبراهيم، وعنوانُها **١٩٥٢** يَكْشف عن النشاط السياسي للطلبة في بداية ثورة يوليو، امتدادًا للحركة النشيطة قبلها، فإنّ سيطرة الضبّاط قد أدّت إلى تأميم النشاط الوطني وثمة شهادةٌ بالغةُ العذوبة يقدّمها بهاء طاهر في رواية **قالت ضحى**. فالشابّ الإيجابي قبل الثورة يتحوّل إلى السلبية الكاملة، ولم تكن سلبيتُه نابعةً من فراغ: فقد كان وصديقه حاتم من العاملين في السياسة والمنشغلين بالهمّ الوطني، وبعد الثورة شاركا في مظاهرةٍ ديموقراطية تعرّضا بعدها لقمعٍ غير معهود: «أخذونا يومَها لواحدٍ من معسكرات الجيش، وبدأت العصى والأحذيةُ السوداء الغليظة تنهال على الأجساد. أخذونا واحدًا واحدًا: مَن الذي نَظَّم المظاهرة؟ أيّ حزب حَرَّضَكم على التظاهر؟ مَنْ قادتُكم؟» (**قالت ضحى**، ص ٧٤). وهنا اضطرّ الراوي إلى اعترافٍ لا مبرَّر له على زملائه، وانكسر حماسُه، وانقطعتْ صلتُه بالعمل السياسي، ففسَحَ الساحةَ للانتهازيين والوصوليين من رجال المرحلة الجديدة!

كان القمعُ قاسيًا بلا هوادة، ومناخُ الرعب هو المسيطر المهيمن. وكان البديل الذي اندفع إليه الشبابُ، جامعيّاً كان أو غيرَ جامعيّ، هو كرةَ القدم وبعضَ التقاليع التافهة التي يجسّدها عبد الرحمن الشرقاوي في رواية **الفلاّح**. ذلك أنّ الاتحاد الاشتراكي العربي، وهو التنظيم السياسي الرسمي الناصري، لا يستوعب الشبابَ، فأسفر الفراغُ السياسيُّ عن سيادة الإحساس الطاغي باللامبالاة وإيثار الابتعاد عمّا يَجْلب المشاكل وكان مثلُ هذا الخواء نتيجةً منطقيةً لانفراد سلطة يوليو باتخاذ القرار دون شريك أو مشاركة. وكان لا بدّ من هزيمةٍ قاسيةٍ في حجم ما حدث في يونيه ١٩٦٧، حتى يستعيد الطلابُ عافيتَهم من جديد.

في روايات **الكرنك**، و**الحب تحت المطر**، و**الباقي من الزمن ساعة**، يقدّم نجيب محفوظ شهادةً مهمةً عن يقظة الوعي الطلابي بعد هزيمة ١٩٦٧، وعن الثمن الفادح الذي دفعه الطلابُ في سبيل مبادئهم وخطابهم السياسي المختلف. لا تخلو رواية من هذه الروايات من ضحية: ففي **الكرنك** يموت حلمي حمادة تحت وطأة التعذيب الوحشي، ويَفْقد حامد مستقبلَه الدراسي وإحدى عينيْه في **الحبّ تحت المطر**، ويُقتل عزيز صفوت في مظاهرة طلابية ضد الرئيس السادات في **الباقي من الزمن ساعة**.

وعن المرحلة نفسها يَكْتب بهاء طاهر في **شرق النخيل**، حيث التعبيرُ الدافئ المتعاطف مع الحركة الطلابية التي اشتدّ ساعدُها، ومزجتْ في مطالبها بين الوطني والقومي والاجتماعي. وفي ظلّ مثل هذا الحراك يتخلّى السلبيون عن سلبيتهم، ويختلط الذاتيُّ والموضوعيُّ في مزيجٍ فنيٍّ فريدٍ يضفي على الرواية روحًا شعريّاً يبتعد بها عن الخطابة والمباشرة والهتاف الفجّ.

وتستمرّ الشهاداتُ من أجيال روائية تالية، ولعلّ أنضجَها ما يقدّمه يوسف أبو ريّة في **عطش الصبّار**، ومحمود الورداني في كلّ من **نوبة رجوع**، و**الروض العاطر**، و**أوان القطاف**. أبو رية والورداني مشاركان في أحداث الحركة الطلابية الساخنة، وقادران على رصدٍ أكثرَ إحاطةً بالتفاصيل من الأجيال السابقة. لكنّ بهاء طاهر في **الحب في المنفى** و**نقطة النور** يَرْصد بدوره هزائمَ الحركة الطلابية اليسارية وبدايةَ تدهورها: فثمة الشابُّ الناصري المهاجر المهزوم الذي يقع فريسةً للضياع في الرواية الأولى؛ وثمة الطالبةُ الماركسيةُ المأزومة، المريضةُ الروح والجسد، في الرواية الثانية

كان تطاحُنُ اليساريين وتشرذُمُهم من ناحية، وتحالفُ السادات المريب مع الجماعات الدينية في صفقةٍ انتهازيةٍ قصيرةِ النظر من ناحية أخرى، مَدْخلاً إلى تراجع الحركة الطلابية الوطنية ذاتِ الأهداف التقدُّمية، وبدايةً لصعود الاتجاه الإسلامي الذي يقدّم علاء الأسواني عنه، في رواية **عمارة يعقوبيان**، رؤيةً موضوعيةً متّزنةً غيرَ مسبوقة:

فطه الشاذلي واحدٌ من أبناء الفقراء المسحوقين. وبحُكْم الانتماء الطبقي المتواضع، فَشِلَ الطالبُ المتفوق في الالتحاق بكلية

الحركة الطلاّبية في الأدب المصري

الشرطة. ولم ينجُ في كلية الاقتصاد والعلوم السياسية من الشعور المدمِّر بالغربة والضياع. وفي ظلِّ تراجع الاتجاه اليساري، القادر على استقطابِ أمثالِ طه، كان منطقيّاً أن يَسْقط «ابنُ البوّاب» في أحضان الجماعات الإسلامية التي امتلأتْ بها جامعاتُ مصر البداية في مصلَّى الكليّة، والنهاية هي الموت في عملية إرهابية انتقامية. وبين البداية والنهاية رحلةٌ طويلةٌ تمتزج فيها مشاعرُ السخط والضيق مع استثمار الأحاسيس الدينية للتعبير عن غياب الرضا والتوافق، والوصول إلى ضرورة الصدام الدموي.

نهايةُ طه كانت في خنادق التطرّف والإرهاب. لكنّ البداية الحقيقية لضياعه تتمثَّل في الخلل الذي أصاب الخريطةَ السياسيةَ والاجتماعيةَ والثقافيةَ في مصر، وفي الوهن الذي أصاب الحركةَ الطلابيةَ التي تحوّلتْ من التعدد والتنوع والآفاق الديموقراطية إلى الانغلاقِ والجمودِ والتعنت.

نبوءة

إنّها رحلةٌ طويلةٌ ممتدة للحركة الطلابية المصرية، تنوّعتْ خلالَها الأفكارُ والرؤى والشعاراتُ. والثابتُ الوحيدُ هو حرصُ الشباب المصري على المشاركة في الشأن العامّ، والتواصلُ مع هموم الوطن الذي ينتمون إليه.

قبل ما يزيد عن نصف قرن، في رواية **القاهرة الجديدة** التي صَدرتْ طبعتُها الأولى سنة ١٩٤٥، يقدِّم رائدُ الرواية العربية نجيب محفوظ نبوءةً ثاقبةً تتأكَّد صحّتُها كلّ يوم. ففي المدينة الجامعية تدور مناقشاتٌ محتدمةٌ لا تنتهي، وأطرافُ الحوار موزَّعون بين الإسلاميين واليساريين والليبراليين واللامنتمين. يقول الوصولي الانتهازي محجوب عبد الدايم قرب نهاية أحد هذه الحوارات: «نحن نشقّ على أنفسنا أكثرَ ممّا ينبغي. كأنّ هذه الحجرة مسؤولة عن رفاهية الدنيا!» ويردّ اليساري علي طه: «سوف تصغي جدرانُها إلى آمال الأجيال المتعاقبة ما دامت حجرةً للطلبة.» (**القاهرة الجديدة**، ص ٤٦)

الطلبة هم وقودُ التغيير حقّاً، وآمالُهم المتباينة تجسيدٌ لأحلام أمةٍ كاملة، وتطلُّعُ الأجيال المتعاقبة إلى الأفضل والأرقى لاَ ينتهي.

مصطفى بيّومي

روائي وناقد مصري من أعماله **معجم أعلام نجيب محفوظ** (١٩٩٨)، ومن رواياته **السيد الأستاذ الدكتور العميد** (٢٠٠٣).